الفصل التاسع

تأسيس العقيدة والتنظيم

(ا) كيف كان المرء يدخل المسيحية فى بداية القرن الثانى : التعميد ، خصائصه ومغزاه – النظريات الفلسفية فى المسيحية ؛ أنماط ثلاث منها : البولينية ، اليوحانية – الدوسيتية – النزعة المشتركة – مصير هذه النزعة لدى عامة المؤمنين – متطلبات الإيمان الأخلاقية – حياة الشعائر .

(ب) نمو الشعائر : هذا النمو يجعل الدخول فى الكنيسة عسيراً – اعتناق المسيحية ونظام « التدريب » – إنشاء الإجراءات الخاصة باعتناق المسيحية – المريدون للتعميد – التعقيد فى طقوس التعميد .

(جـ) تنمية الإيمان ؛ التأثير المزدوج الذى يهيمن عليه : تأثير البسطاء وتأثير الفلاسفة – خرافة الثبات و « شروط الإيمان » – تاريخها – كيف تعرض مشكلة الثالوث – نموها فى القرن الثانى – ألوان من المقاومة التى واجهها التطور العقائدى : الأبيونيت والألوج .

(د) تنمية الحياة الكنسية – النزعة إلى فرض الطقوس على سائر أوجه حياة المؤمن – أصل « القداس » المعنى الذى تنزع طقوس القربان إلى التطور نحوه – تحول الخبز والخمر المقدسان إلى لحم ودم المسيح .

(هـ) التوبة – خصائصها – تنظيم طقوس التوبة لم يزل بدائيا – ليس هناك أنواع أخرى من « الأسرار » فى بداية القرن الثالث – خاتمة .

(١)

فصلنا فيما سبق كيف كان العالم اليونانى – الرومانى ، فى ذلك العهد الذى استقلت فيه المسيحية كدين بانفصالها عن اليهودية ، يرفض الديانات التى لا تصاحبها الطقوس والاحتفالات . كذلك لم يكن الناس فى هذا العالم اليونانى – الرومانى يتصورون ألا ينتظم الإيمان المسيحى – وهو الذى يزعم أنه وحى منزل – فى فروض ميتافيزيقية تعرف بـ « العقائد » (دوجما) . وكما بحثنا فيما سبق السبل التى سلكتها المسيحية فى إنشاء اطارات وتنظيمات خاصة بحياتها العملية ، خلال القرن الأول والقرن الثانى ، نريد الآن أن نتحقق من تلك التى سارت عليها ، فى نفس الوقت ، فيما يتعلق بالشعائر والعقيدة ، وما انتهت إليه من نتائج .

وإذا ما توقفنا فى نهاية العهد الحوارى عند منحدر القرن الأول ، وجدنا أنه كان من السهل الميسور على الإنسان أن يعتنق المسيحية : كان يكفيه لذلك الشهادة بأن عيسى المصلوب هو المسيح الذى وعد الله به أمته ، وبأنه مات من أجل خطاياها ، وبأنه سوف يعود فى الأجل القريب ليقضى بين الأحياء والأموات ولينشئ مملكة الله حيث يعيش الصالحون عيشة ملؤها السعادة بعد أن تبعث أجسادهم ويمجدون ، وكان الأمر مقصوراً على ذلك أو يكاد ، فإذا ما آمن الإنسان به ، أقيمت له مراسم التعميد ؛ وهى طقوس يهودية الأصل ، تبناها المسيحيون ؛ وتعنى – فى « السر » الذى أنشأه بولس والذى يحمل طاقة كبيرة من الرمزية ومن الواقعية التأليفيتين – تعنى موت وبعث « السيد » وتجديد

هذا الموت وهذا البعث بالنسبة إلى المريد ، أما لدى عامة الأتباع ، فهى ترمز على الأقل إلى التوبة وإلى تغيير أسلوب الحياة ، وتؤكدهما ؛ كما تضمن محو الآثام والخطايا محواً تامًّا . فالتعميد يعد « خاتم « اليد ، يعرف به المؤمن ، ويصاحبه « إشراق » هو فيض من فضل الروح القدس . وكانت الفكرة الشائعة أن التعميد هو المراسم النهائية اللازمة لإتمام التحول إلى المسيحية ، وأنه لا يفترض – من حيث المبدأ – احتفالا كبيراً ؛ إذ يمكن أن يقوم بطقوسه أى مسيحى ولا يستلزم من المريد إعداداً مطولا : فهو – إن سمح لنا بهذا التعبير – عمل إيمانى ، وأعمال الروح لا تخضع للزمن . ولعله كان على المريد منذ ذلك العهد أن يقرأ نصا مختصراً ينطوى على المبادئ الأساسية لدينه الجديد .

ونحن نعلم أن هذه المبادئ الأساسية لم تكن فى نهاية الأمر سوى فروض قليلة التعقيد . ولكن المريد ، متى ما دخل الكنيسة ، وجد نفسه أمام نظريات قد لا يتقبلها الناس جميعاً ، ولكنها تثير لدى الجميع اهتماماً بالغ العنف . كانت شخصية المسيح ، بطبيعة الحال ، موضوعها الجوهرى . فعندما تلاشت تلك الفئة القليلة من الناس الذى عرفوه « لحماً ودماً » ، لم يعد هناك أى اعتبار تاريخى يحدد أو ينظم من التجارب ومن الإضافات فى الإيمان ، لذلك نراها تنمو وتزداد فى تصورات ثلاث رئيسية لـ « السيد » قابلة للبحث وللتنقيب .

الأولى – منها هى تصور بولس له ، ونذكر القارئ هنا بخطوطه الأساسية :

– كان عيسى إنساناً سماويًّا ، أى : إنسانا سبقت عناصره الروحية فى الوجود وجوده الجسدى ، وكانت من قبل فى السماء . ومبدأ حياته – إذ سمح لنا بهذا التعبير – هو الروح الإلهى نفسها ، « فعيسى هو الروح » .

– وجاء عيسى إلى الأرض لينشئ إنسانية جديدة ، هو آدمها ، إنسانية

يحررها من أثقال الخطايا بقبوله ، فى سبيل « شرائها » ، أن يعيش عيشة الإنسان المحقر وأن يموت ميتة الآثم المشينة . « إنه صورة الله الخفية ، وهو أول الخلق ، ففيه خلقت سائر الكائنات فى السماء والأرض ، المرئى منها والخافى على الأعين . وكل الكائنات خلقت به وفيه . وهو سابق للكائنات جميعاً وكلها موجودة فيه » .

– فشخصه إذن هو « المكان الميتافيزيق الذى يجتمع فيه الله والخليقة » ، على حد التعبير البديع الذى أطلقه الكاتب ساباتييه ؛ وبعثه وتمجيده يضمنان للمؤمن انتصاره هو الآخر على الموت .

ولقد سبق لنا القول إن هذه النظرية الخاصة بعيسى والتى ظهرت فيها آثار التيارات التأليفية المحيطة ، كانت أولى « الغنوصيات » المسيحية . وهى لم تأت بثمارها فى أول عهدها ؛ بل أسىء فهمها وتناساها الناس سريعاً أول الأمر ، حتى بين رحاب تلك الكنائس التى أنشأها الحوارى . إلا أنها كانت حية قوية بين دفتى « الرسائل » ؛ فوجدها القوم فيما بعد ، وظنوها وحياً وإلهاماً ، حتى أصبحت دعامة من الدعائم التى اعتمد عليها التفكير الهيلينى – المسيحى .

أما التصور الثانى ، فهو الذى تبرز فيه ، فيما يختص بالمسيح ، النظرية « اليوحانية » التى تعتمد على تعريف « السيد » بـ « اللوغوس » ؛ الأمر الذى يبدو ، لأول وهلة ، قريباً من عبارة بولس القائلة بأن « السيد هو الروح » ؛ ولكن هذا التصور ينطوى فى الحقيقة على مفهوم ميتافيزيق أكثر عمقاً : حيث إن « اللوغوس » وهو فيض الله يمكن فى نهاية البحث أن يكون تعبيراً عن الله ، والقول بأن « السيد هو اللوغوس » يكاد يكون مرادفاً للقول بأن « السيد هو الله » . ونكرر هنا أن ذلك كان أمراً هائلا وفاضحاً بالنسبة إلى اليهود ؛ وإن

كان – بالتوازى – سهل القبول لدى اليونانيين الذين يميلون إلى القول بالتدرج فى الآلهة ؛ هذا بالإضافة إلى اتجاهه نحو عين السبل التى يطرقها الإيمان الحى الذى يصبو بفطرته إلى الإعلاء دائماً من شخص « السيد » .

ويأتى التصور الأخير لشخصية المسيح ، وهو المعروف بـ « الظاهرى » (δόκησις = ظهور) ، والذى يقول إن « السيد » لم يكن إنساناً إلا ظاهريًّا ، وبأنه لم يمتحن ولم يمت إلا فى الظاهر ، وكانت « الظاهرية » تحاول بهذا الرأى الملتوى أن تفلت من ضرورة فرض الملازم المشين بين الكائن الإلهى وبين الجسد وما يصدر عنه ، ولكنها بذلك حتمت التدرج إلى نظرية للخلاص تختلف تمام الاختلاف عن تلك المعتمدة فى إيمان الجماعة ، وإن الصور التى قدمت لهذه النظرية لتختلف كثيراً بعضها البعض باختلاف الغنوصية التى تبنتها .

ومن الواضح برغم الاختلاف فى الأسس المبدئية وفى روح القائلين بها ، أن هذه النظريات الثلاث فى شخص عيسى ، تهدف إلى نتيجة واحدة ، هى الخروج بالمسيح عن نطاق البشرية بتقريبه من الله ، وتلك عملية عسيرة فى حد ذاتها ، حيث إن المسيحية قد أخذت عن الدين اليهودى ، الذى أنشئت على أسسه ، فكرة التوحيد غير القابل للجدل ، وإذا ما تقبلت القول إن « السيد » هو حقيقة ، كائن سماوى ، فلا مناص لها ، فيما يبدو لنا ، من أن تجعله خاضعاً لله ، تماماً كما كان « المنقذ » فى « الأسرار » خاضعاً للإله الأعظم . وقبل أن يتجه التفكير المسيحى نحو مفهوم ثالوث الشخصيات الإلهية المتحدة فى جوهر فرد ، أى فى الكون الإلهى بذاته ، قبل ذلك بزمن بعيد جرب الناس تركيبات عديدة مختلفة ، لم يترك الكثير منها سوى آثار غامضة مبهمة . إلا أنه لم يكن قد

طلب بعد من عامة المؤمنين أن يتعلقوا بأى منها ؛ بل لم يطلب منهم « الإيمان » إلا بفروض لا تحتم مجهوداً فكريًّا يذكر .

أما ما طلب منهم « العمل به » ، فقد اقتصر على حسن السلوك فى الحياة ؛ أى : الحرص حرصاً شديداً على عدم الوقوع فى الأخطاء الأخلاقية التى يعتبرها الناس عامة آثاما ، وأن يجتهدوا على الدوام فى تجنب الغرائز الجسدية الشائنة ، معتمدين فى ذلك على الاطمئنان المطلق إلى فضل الآب السماوى وإلى شفاعة السيد عيسى المسيح . وقد احتفظ القوم بشعائر اليهودية من صلاة متكررة وصيام . وكانت الطقوس الجماعية ، فى حياتهم الدينية ، تقتصر على اجتماع القربان أى : فرض العبادة الذى يقام من مساء السبت إلى فجر الأحد كل أسبوع ذلك الاجتماع الذى تمجد فيه الأصناف الإلهية ، من خبز وخمر ، ثم يتناولها الناس . ولا نرجح من ناحية أخرى أن كل الجماعات كانت على اتفاق فيما يختص بمعنى طقوس القربان : كانت الغالبية لا ترى فيها سوى تذكرة بعذاب المسيح ومأدبة للوحدة الأخوية ؛ وكان بعضهم يعدها وسيلة فعالة للمشاركة فى ذات « السيد » بإحياء هذا العمل الجوهرى من أعماله الدنيوية ، أى بتكملة وتجديد فضل التعميد . وإننا لا نكاد نجد أو نستشف لدى المسيحيين أى شىء من العملية الأخرى مثل المسح بالزيت الذى تصاحبه لمسات يدوية معينة ، والذى توصى الرسالة المنسوبة إلى يعقوب باستخدامه لشفاء المرضى ، فهذا التقليد ، فى الواقع ، تقليد من تقاليد اليهود الأساسية .

تلك كانت ، فى بداية القرن الثانى أو حوالى ذلك ، سبل اعتناق المسيحية ومفاهيم عقيدتها وطقوس عبادتها .

إنها لحياة فكرية وعملية تبلغ الغاية من البساطة ؛ ولكنها ، إلى جانب

ذلك ، تبلغ أيضاً الغاية فى المرونة ؛ وإننا لنجد المؤثرات الدينية الهيلينية تتفاعل فيها – على أساس من المبادئ اليهودية الواضحة كل الوضوح – مع المفاهيم الفلسفية اليونانية التى نزلت إلى مستوى العامة بطرق غير مباشرة وإن كانت لا تخفى على الباحثين .

ولنحاول الآن أن نتبين كيف تعقدت على الناس ، بعد ذلك ، سبل الدخول إلى الكنيسة ومفاهيم العقيدة وطقوس العبادة العملية .

(ب)

تعقد الدخول فى الكنيسة المسيحية بفعل نمو الطقوس التى شملت شيئاً فشيئا جميع المجالات الدينية عندما تم استغلالها فى انتظام ، والتى يبدو من ناحية أخرى أنها ملازمة لحياة كل هيئة كنسية حقيقية . ويجب أيضاً أن نحسب حساب ذلك الخوف الذى ينتشر بين المؤمنين من دخول أصحاب الخيانة بين الأخوة ومن سوء استخدامهم لـ « الأسرار » إن ألقى بها إليهم فى غير تدبر وحذر . لذلك أخذ الناس بألوان من الحيطة اللازمة لمواجهة النية السيئة . ولقد ظن الباحثون خلال عصور طويلة أن هذه الألوان من الحيطة قد رتبت فى النهاية فى إطار النظام المسمى بـ « نظام السر » ، الذى قيل إنه يحصر فى مراحل متتالية درجات تعليم وتعريف المريد للمسيحية ، فلا يصل إلى غاية « السر » إلا فى المرحلة الأخيرة ، وبعد امتحانات تبين حقيقة نيته . وإننا لنلمح شيئاً من هذا القبيل فى واقع الأمور بعد إنشاء نظام « التدريب » ، أى : فرض درس منتظم لتعريف طلاب التعميد بالمسيحية . ولكن « نظام السر » فى هذه الحالة لا يمكن أن يكون سوى وهم وتمثيل فى الطقوس ، وذلك لسبب لا يخفى على

أحد ، وهو : أن غاية « السر » النهائية هى عين السبب الذى يدفع إلى اعتناق الدين الجديد ، وهى هى أيضاً علة هذا الاعتناق الأولى ، والكشف التدريجى لن يتعدى بعد ذلك أن يكون رمزاً من الرموز ، إذ المريد على معرفة تامة منذ البداية بما سوف يتلقاه فى النهاية . ويمكن القول بأن « نظام السر » كان لا مغزى له قبل إنشاء « نظام التدريب » ثم أصبح ولا جدوى عملية كبيرة له من بعد قيام « نظام التدريب » .

بيد أن مجرد اتجاه النية إلى اتخاذ بعض الحيطة للمحافظة على الدين من الدخلاء – وطلب الدخول فى الدين الجديد أمر لا يمكن رفضه لإنسان – أو على الأقل للمحافظة على ما سوف نسميه منذ الآن بـ « الطقوس القدسية » ، هذا الاتجاه يؤدى بالضرورة إلى إنشاء فترة تدريب لمريدى المسيحية . وهذا هو بالذات ما سمى بـ « الكاتبشوميناه (=XϘTηxέω= = أنا أعلم) » ، وهو النظام الذى نجد أول النصوص الدالة على وجوده فى مؤلفات « تيرتوليان » والذى يبدو أنه تأسس قرب نهاية القرن الثانى دون أن يتخذ صورة موحدة فى كل مكان . إلا أنه يمثل لدى سائر الجماعات نوعاً من التربية والمراقبة لإيمان المريد بإشراف ذوى السلطة من هذه الجماعات . وكان المريد يدخل فى هذه المرحلة التدريبية عن طريق التسجيل فى قائمة خاصة والمرور ببعض الطقوس التمهيدية ؛ ثم يجد نفسه ، بعد فترة قد تطول وقد تختصر من الدرس والامتحان ، طالباً بين مجموعة الطالبين للتعميد الذى يقوم به الأسقف بمناسبة بعض الأعياد الكبرى مثل الفصح أو القيامة .

وأصبح التعميد نفسه احتفالا معقداً ، يشتمل على أقل تقدير على مجموعة من التعليمات الخاصة ، وعلى الغسل بالماء الذى يكرر ثلاثاً ، وعلى إجراء

obeikandl.com

اللمس باليد الذى يصاحبه المسح بالزيت المقدس ، ثم ينتهى إلى طقوس القربان الأول . وأصبح من المعتمد بعد ذلك أن المريد البسيط قد يكون من المحتمل نجاته ووصوله إلى الخلاص . أما جماع الفيض الذى يتمتع به المسيحى فلا يكون إلا لذلك الذى تم تعميده ؛ والتعميد وحده هو الذى يعقد بين « السيد » وبين المؤمن تلك الأواصر الخفية التى تجعل الأخير من أمة الأول الخاصة . وليس من العسير علينا أن نكشف عن روح « الأسرار » الهيلينية فى هذا التعليم التدريجى وفى هذه الطقوس الفعالة ثم فى المعانى التى حملت بها مراحلها . فقد رأى الناس أن إجراءات التعميد أصبحت مشحونة بمجموعة هائلة من الارتباطات الوثيقة ، وأن عدم الوفاء بما يأخذه منها المرء على نفسه من مواثيق قد يؤدى إلى التهلكة ؛ مما حدا ببعض الذين يؤمنون بالمسيحية فى أعماق قلوبهم إلى الامتناع عن التعميد حتى تأتيهم سكرات الموت فيطلبونه ، وذلك حرصاً منهم وحذراً . وتلك عادة يبدو أنها انتشرت انتشاراً واسعاً – برغم معارضة الإكليروس – فى نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع ، وعلى الأخص بين الطبقات الرفيعة من مجتمعات المسيحيين .

(حـ)

أما العقيدة فقد وجدت غذاءها فى الإيمان الذى طورها ونماها ، وازدهرت فى ذلك الوسط الذى عرفناه مشرباً بالمذاهب والنظريات الدينية ، فوقعت تحت لونين من التأثيرات : الأول منهما تأثير عامة الناس البسطاء الذين لا يستطيعون التسامى عما اعتادوه من تركيبات وإضافات لا عمق فيها ولا عبقرية ، ويحلمون بالثبات على الحق ولكنهم لا يقدرون على الحفاظ عليه . وإنهم لهم أنفسهم

الذين قبلوا ثم فرضوا منذ البداية كل النظريات التى تؤرق المسيحيين وتعتبر خطراً على دينهم ، قبلوها وفرضوها لأنها تعلى وتضخم من صورة « السيد » . والواقع أن الاتباع أتوا من العالم الهيليني بعد أن عمرت أذهانهم بفروض الأورفية أو الأسرار ، لم يكونوا ليتخلوا بسهولة عن هذه الفروض عند دخولهم المسيحية ؛ بل كانوا على العكس يبحثون عنها فى دينهم الجديد ويريدون أن يستعيدوها بين عقائده ، فيتدرجوا – فى غير إدراك منهم ولكن بدفعة عاطفية لا تقهر – إلى إدخالها عليه . ثم علينا بعد ذلك أن نحسب حساب تأثير الفلاسفة ، ونعنى بهم هؤلاء الرجال المثقفين والذين هم ، بفضل ثقافتهم ، على استعداد لأن يعملوا فكرهم فى مسائل الإيمان ولأن يصبحوا من الباحثين فى علوم اللاهوت . ولا جدال فى أن المسيحية زعمت منذ البداية أنها تنطوى على الحقيقة كلها ؛ وبذلك لا يكون هناك أى سبب تستند إليه الفلسفة التى تبحث عن الحقيقة فى تعليل وجودها ؛ ولم يغفل بعض العلماء ، من أمثال « ترتوليان » أو « أرنوب » أو « لاكتانس » عن إعلان هذا وتأكيده . غير أن إغراء الفكر اليونانى ظل يؤثر على هؤلاء الذين كانوا قد عرفوه قبل خضوعهم للنزعة الجارفة التى جاءت بهم إلى الإيمان المسيحى . وهم أيضاً رجال لم يجدوا الإرادة الكافية أو لم يستطيعوا ، وإن أخلصوا النية ، أن يتناسوا القوانين الأساسية وأساليب التفكير التى علموها فى المدارس ، فراحوا يطبقونها على مبادئ الإيمان وعلى النظريات التى أوحت بها العاطفة الدينية للسذج البسطاء . ونشأت عقائد معقدة مثل : التثليث ؛ وأخرى تريد أن تكون ذكية بل غاية فى الذكاء مثل : تحول الخبز والخمر بطقوس القربان إلى لحم ودم المسيح ؛ نشأت وانتظمت بفضل الإضافات والبراهين التى أتى بها « الفلاسفة » فى سعيهم إلى تحليل

الفروض التى يتقدم بها العامة من الناس والتى قد تكون متعارضة[1] .

وفى كلتا الحالتين ، ننتهى إلى أن الإيمان هو الذى يتسامى دائماً بالعقيدة ويزودها بالإضافات ، وأنه هو الذى يستعير فى كل الأحوال من بيئته الدينية السابقة العناصر التى يصوغها فى دينه الجديد .

وكان من الطبيعى ، عند بلوغ المسيحية لنهاية هذه المرحلة الأولى من تاريخها التى كان الإيمان فيها يسير إجمالا وفق إيحاءات « الروح » ، كان من الطبيعى أن يشعر المسيحيون بالمخاطر التى يمكن أن تؤدى « الذاتية » بهم إليها ؛ ونعنى بالذاتية : أهواء الأفراد كل حسب روحه الخاصة . ومن ناحية أخرى ، نراهم قد تأثروا بذلك الوهم الأزلى الذى نجده فى كل الأديان الموحى بها والذى يزعم : أن الحقيقة « واحدة » وأنها ، بالتالى ، « ثابتة » ؛ ثم ما لبثوا أن أيقنوا بأن دعوة الحواريين تنطوى على هذه الحقيقة جميعها ؛ واتجهوا من أجل تأمينها ، وأيضاً من أجل منع تشتت العقائد و « المزايدة » الساذجة فيها ، إلى إنشاء « شريعة للإيمان (ريجولا فيدى) » يفترضون فيها الثبات . ويعبر « ترتوليان » عن هذا الاتجاه تمام التعبير فى قوله : « الإيمان كائن فى شريعة واحدة . ولن يجد حولا له ولا نجاة إلا فى التمسك بأهداب شريعة واحدة » .

وتشير بعض الدلائل إلى أن تعاليم معينة مختصرة قد وضعت منذ القرن الأول ليستذكرها ويحفظها المريدون عند طلبهم للتعميد . وإن ما يسمى حتى يومنا هذا

---

(١) كان لعلماء الإسكندرية المسيحيين على الأخص فضل كبير فى تدعيم هذا الأثر ؛ الخصب » للفلسفة اليونانية على معطيات الإيمان . وأبرز هؤلاء العلماء هو أوريجين الذى عاش فى القرن الثالث ، والذى انتهى إلى التعبير عن « الحقائق الحوارية » بلغة أفلاطون ، أى : أنه كرر بالنسبة إلى المسيحية ما قام به أفلوطين قديما من تفسير لليهودية على أساس من الأفلاطونية والرواقية .

بـ « رمزية الحواريين » ، ليس سوى شريعة إيمان يرجع تاريخها إلى عهد سحيق ، إذ يبدو أنها ، فى صورتها الأولى ، أنشئت فى روما حوالى عام ١٥٠ ، ونسبت إلى الحواريين حتى يسهل على جميع الكنائس قبولها . ولم تكن هى الوحيدة من نوعها على أى حال ، فنصوص القرنين الثانى والثالث تذكر لنا بعض الوثائق التى تتفاوت فى درجة مشابهة لها . وتبرهن لنا هذه النصوص على أن بعض الاختلافات ظلت قائمة بين الرموز التى قبلتها الكنائس المختلفة ، بل تبرهن على أن كل رمز من هذه الرموز ظل مرناً بعض المرونة لفترة طويلة[1] . وهى تدل إلى جانب ذلك على أن كل كنيسة من الكنائس كان لها منذ ذلك العصر « شريعة إيمان » و « رمز تعميد » . وهذا أمر بالغ الأهمية لأن العبارات المتضمنة للرموز المذكورة كانت تستخدم كموضوعات لتأمل الإيمان المسيحى ، وكان يكفى أن يتعمق فيها التفكير اللاهوتى لتتفجر منها العقائد .

وكان محور هذه التآليف جميعاً ، بطبيعة الحال ، مفهوم المسيحية الذى يتطور كل شىء وفقاً لتطوره . ولا نريد هنا أن نتدرج فى تفاصيل لا جدوى منها ، لذلك نكتفى بذكر المسائل الأساسية الثلاث التالية :

١ – لم يكن الإيمان ، من حيث المبدأ ، يقبل أى جدل فى عقيدته الأساسية الخاصة بالتوحيد .

٢ – كانت النهاية المنطقية لكل الإضافات الإيمانية الخاصة بشخصية ودور عيسى المسيح ، هى تقريبه من الله إلى درجة الوحدة .

٣ – كانت هناك نزعة عكسية تسعى إلى إبراز الألفاظ من رمز الآب والابن

(١) حورت بعض جوانب « رمزية الرسل » هذه فى مناسبات متعددة من أجل معارضة فئة مختلفة . ولا أدل على « المرونة » التى نتحدث عنها من مقارنة النصوص المختلفة لترتوليان .

والروح فى شخصيات ثلاث تتحدد معالمها – أى تتميز – يوماً بعد يوم . وهذا يعنى فى النهاية القول بأن الإيمان كان يتعلق فى قوة متزايدة بأهداب فروض متعارضة .

ولم يكن للعقول الراجحة إن أرادت الخروج من المأزق سوى الاختيار بين حلين : إما التخلى صراحة عن التوحيد والتسليم بالتثليث ؛ وإما التخلى عن التمييز بين الشخصيات الثلاث فى الله والقول إن كلا من هذه الشخصيات ليس سوى جانب جوهرى من جوانب الذات الإلهية الواحدة . ولكن غالبية المسيحيين رفضت الاختيار بين الأمرين ، وأرادت أن تبقى ، فى نفس الوقت ، على وحدة الله التى لا تتجزأ ، وعلى وجود شخصيات ثلاثة متميزة فيه . وعن هذا الفرض الذى يتعارض طرفاه نشأت مناقشات لا تحصى كان من شأنها إثارة مشاكل تراكمت على مشاكل وصعوبات ترتبت عليها صعوبات متجددة ، فسببت للكنيسة فتناً هائلة لم يهدأ أوارها تقريباً إلا فى القرن الخامس حيث توغلت فى دروب من التعبيرات والنظريات اللاهوتية لم يعد المنطق يستطيع إدراك معالمها .

ومنذ القرن الثانى أصبح من المبادئ المعتمدة : أن عيسى هو ابن الله ، ينتسب إليه نسبة مباشرة وإن كانت من نوع خاص ؛ ثم إنه أيضاً هو الله ، وهو منظم العالم بإرادة الآب وبمعونة الروح القدس . وبدأ المذهب الخاص بالصلة بين الابن والأب يتألف برفضه فى آن واحد لمفاهيم ثلاثة مختلفة تتعلق بهذه الصلة :

١ – نظرية التبنى التى عبر عنها تيودوز بوضوح فى روما ، عند نهاية القرن الثانى ، والتى تقول بأن عيسى الإنسان « تبناه » الله ، فى نوع من التقمص لـ

« اللوغوس » اكتسبه المسيح بفضائله الخاصة .

٢ – نظرية الأشكال ، وهى التى تفترض أن الله جوهر واحد ، يظهر فى وظائف مختلفة ، منها : وظيفة الخالق أو المنقذ أو الملهم ؛ ولا يكف فى ذلك عن كونه ذاته . وعليه نستطيع الزعم أن الأب قد صلب عندما صلب الابن ، وكذلك الروح القدس . وقد راح أحد المفكرين ، ويدعى براكسياس ، يشرح ذلك فى روما حوالى عام ١٩٠ .

٣ – النظرية الغنوصية ، وهى ذات صور تبلغ من التعدد مبلغًا يستحيل معه تلخيصها فى عبارة واحدة ، ولكن يمكن القول مع ذلك إنها كانت ترسم المسيح كشخصية إلهية ، بل كنوع من القوة الأزلية غير المحدودة هى وسط الكمال الإلهى وبين الطبيعة البشرية الناقصة . وكانت الفرق الغنوصية عامة تأخذ بـ « الظاهرية » فى تصورها للمسيح ، أى : تقول إن حياته الدنيوية وتقمصه الجسد البشرى لم يكونا إلا ظاهريًا .

وإن الجدل الذى أثارته هذه الخلافات حول التصورات الخاصة بذات المسيح ليبدو على درجة من الإبهام ومن البعد عما تعودنا اعتباره جدلا منطقيًا معقولا ، يتهيأ معها أحياناً للقارئ أنه مجرد تبادل خزعبلات لا جد فيها . ولكن علينا ان نقف عند هذا الحد من تأملنا ؛ فقد كان للجدل المذكور أهمية كبرى ، إذ فرض على الإيمان العام أن يحدد معالمه وأن يكشف عن قواه الحية . وعلينا ألا ننسى أيضًا كيف نشأت أغلب العقائد من الفروض الهادمة لغيرها ومن المزاعم القاطعة ببطلان كل ما عداها : فالرأى الذى يغلب ويثبت ، هو ذلك الذى لا تقضى عليه آراء أخرى ، أو هو الرأى المضاد للذى يرفضه الناس . وكانت أساليب الجدل المستخدمة فى العصر الذى نتحدث عنه هى أساليب

السفسطائيين وأهل المنطق من الإغريق . كما أن المفاهيم التى تراكمت شيئاً فشيئاً على عناصر الإيمان الأولى فحولتها إلى عقائد ، كانت نابعة من الميتافيزيقا الهلينية وتستخدم مصطلحاتها فى التعبير عن قضاياها .

ولاقى هذا التطور ، بطبيعة الحال ، ألواناً من المعارضة . فبعض الناس تعلقوا بالصور القديمة لإيمان الحواريين وبسنن اليهودية – المسيحية الأولى . وكان هؤلاء ، فى غالب الظن ، الخلفاء المباشرين للأتباع الأول من أهل فلسطين ، حيث نجدهم يعيشون على الأخص ولفترة طويلة شمالى نهر الأردن فى المنطقة التى لجأ إليها مسيحيو القدس عندما هربوا من تلك المدينة على أثر الثورة اليهودية الكبرى عام ٦٦ . ولم تلبث الكنائس الهلينية أن اتهمتهم بـ « فقر » تفكيرهم فيما يتعلق بـ « السيد » ، وأطلقت عليهم اسم « الفقراء » تحقيرًا لهم . وقد شرحنا فيما سبق كيف بدأ الشك ، منذ عهد جوستين ، فى أمر نجاتهم ، وكيف جاءت الساعة التى كان لابد فيها للناس من أن يعدوهم بدعة فى كنيسة الله الكبرى . والحق يقال إنهم كانوا فئة من المتأخرين ، أرادوا فى عناد بالغ ان يحتفظوا بمعتقدات عفا عليها الزمن وأصبحت لا تتفق مع البيئة اليونانية . وإننا لنلمح أيضاً ألواناً أخرى عنيفة من المقاومة لمذهب « اللوغوس » الذى مهد لعقيدة الثالوث ومكنها من الثبات . ولكن الذين ثاروا على هذا المذهب لم يكن لهم من النجاح حظ أكبر من حظ « الفقراء » فى إيقاف التيار الذى دفع بالإيمان المسيحى إلى إنشاء ميتافيزيقا عقائدية تنمو وتتعقد يوماً بعد يوم ، وتبتعد بذلك عن دعوة الحواريين .

ولم يكن هذا العمل الخاص بإنشاء العقائد ، عند نهاية القرن الثانى ، سوى محاولات بدائية ، إلا أن اتجاهاته كانت واضحة كل الوضوح ، وهى لن تتغير

بعد ذلك تغيرًا جوهريًا ، فـ « الأمل المسيحى » أصبح منذ ذلك الحين « دين المسيحية » ، أى : الدين الذى جعل من عيسى المسيح إلهه الحقيق ، وانفصل تمام الانفصال عن اليهودية ، بل تنكر لها ولعنها باعتبارها ألد أعداء الحق ، بدلا من أن يظهر نحوها عاطفة البنوة الواجبة .

(د)

وهناك ظاهرة أخرى تبرز هذا الاستقرار للمسيحية فى صورة الدين المستقل المتعصب لمبادئه ، ذلك هو النمو الرأسى والأفقى المضطرد فى الحياة الكنسية . ونعنى بهذا : نزعة الفرد المتزايدة يوماً بعد يوم ، من وجهة النظر الدينية ، إلى التلاشى فى الجماعة وإلى إخضاع سائر الأعمال الجوهرية من الحياة لإشراف ، أو على الأقل لتأثير ، أشخاص هم السلطة المنظمة فى الكنيسة ، ثم إخضاعها للشعائر والطقوس التى تعبر عن فعل وجود « السيد » وسط أتباعه وتوحد بينهم حقيقة فى ذاته . ويجب علينا ألا نسبق الزمن بالحديث عن « الشعائر القدسية » بمعناها المتعارف عليه ، ولا أن نطبق هذا التعبير فى غير تدبر على سائر التقاليد العملية فى الكنيسة القديمة ، مثل تلك التى كانت تفرض بواسطة الأسقف فى مناسبة زواج أو موت أحد الأتباع . ولكن الواقع أن هذه التقاليد ، بدخول الطقوس المحددة فيها ، أصبحت تتجه إلى أن تكون « شعائر قدسية » ، أى عمليات سرية ينبع منها فيض من الفضل الخاص .

ولقد أوضحنا فيما سبق كيف تعقد التعميد فى طقوسه ، وكيف تحدد ووضح فى شعائره القدسية . وإنا لنرى تقليدين قديمين من تقاليد الحياة الكنسية يتطوران نفس التطور فى كثير من النشاط ، وإن لم يبلغا الهدف بمثل ما بلغه به

التعميد من سرعة ؛ هذين التقليدين هما : القربان والتوبة .

فاجتماع القربان – الذى عرفته الجماعة الأولى – أصبح ، منذ القرن الثانى ، « قداسًا » ، أى سلسلة منتظمة من القراءات والصلوات الجماعية والدروس والتراتيل ، تجد قمتها العليا فى تقديس الأصناف الإلهية وفى تناول القربان . ولم تتفق الآراء تمام الاتفاق على تحديد المعانى العميقة والخصائص الحقيقية التى كانت لهذه الطقوس فى ذلك العهد البعيد من الحياة المسيحية ؛ وثارت قديمًا مناقشات مطولة حول القطعة من أثاث الكنيسة التى كانت تستخدم لتقديس الأصناف ، هل كانت مائدة كالعهد بها أول الأمر أو اتخذت شكل المذبح . . . والظاهرة المؤكدة لدينا على أى حال هى أن القربان كان يعتبر منذ ذلك الحين « سرًّا » ويمكن الأتباع من المشاركة فى « السيد » وفقاً للمفهوم الذى سبقت له الغلبة فى عقيدة بولس : فأصناف القربان ، من خبز وخمر ، ينظر إليها على أنها طعام معجز ، يجب إعداد النفس قبل تناوله إعدادًا دينيًّا خاصًّا ، وإلا كان المآل إلى التهلكة .

وفى هذه الطقوس نرى ذكرى موت الإله والإتقان بفاعلية الموت فى إنقاذ المؤمن ، ملازمان للفكرة الأساسية القديمة التى تقول بالمشاركة فى الذات الإلهية بتشرب الإله ؛ لذلك كان لابد لفكرة التضحية بدورها من أن ترتبط بها وأن تتداخل فى مراسمها . كان لابد لها من هذا لأن جميع ديانات البيئة التى تكونت فيها المسيحية تأخذ بمبدأ التضحية ، ومن العسير القضاء على مفهوم بلغ مثل هذا المبلغ من الانتشار بين الناس ؛ وكان لابد لها من هذا أيضاً لأن فكرة التجدد الصوفى لموت الإله فكرة قد تغلغلت – بأشكالها العديدة – فى عبادات الغالبية من آلهة الخلاص . وكان من المتعارف عليه أن الأمر لم يعد يتعلق فى الحقيقة

بـ « ذكرى » التضحية الأولى من أجل إنقاذ البشر ، تلك التى تمت على طريق الآلام وعلى الصليب بالقدس ؛ فلو لم يكن القربان إلا ذلك لما تعدى فى معناه أن يكون رمزاً من الرموز بل إنها لتضحية حقيقية ، يعود فيها الإله إلى ما كان عليه ، أى : ضحية بإرادته ، برغم ما يتلقاه من فروض التمجيد والتقرب . ونتيجة هذه التضحية : إفاضة قوة سحرية تتولد عنها مزايا صوفية لا تحد بالنسبة إلى جميع المشاركين . ولقد قيل إن هذا التصوير للقربان إنما يعنى إدخال « قطعة من الوثنية » فى الدين المسيحى ، وعلينا أن نفهم من ذلك بطبيعة الحال : أنها قطعة من « وثنية الأسرار » .

وأدى الأمر إلى نتائج عملية وعقائدية تبلغ الدرجة الأولى من الأهمية . ففى العبادات الشرقية الخاصة بالآلهة الذين يموتون ثم يبعثون ، نجد أن التركيز فى الطقوس يتجه حينًا إلى الاحتفال بموت المنقذ ، ويذهب حيناً آخر إلى تمجيد بعثه ؛ ولكن الاهتمام – على حد علمنا – قلما كان يوزع بالتساوى بين المرحلتين من تاريخ الإله . وفى المسيحية الأولى ، مسيحية الاثنا عشر ، كان البعث يحتل المكانة الأولى ، لأنه بدا ضماناً للأمل الأكبر ، الأمل فى عودة المسيح وفى إنشاء مملكة الله . فلما تأخر « الظهور » وأصبح تحقيق الأمل غير وشيك فى تفكير الأتباع ، تطورت فكرة « بعث السيد » فى الإيمان من ضمان لقرب حلول المملكة الموعودة إلى ضمان لبعث المؤمنين يوم القيامة . وكان بولس السابق إلى ذلك فى عقيدته[1] . ومقابل هذا نرى القربان يسمو فى معناه بازدياد التأمل وبإنشاء النظريات فى التجسيد وفى الخلاص عن طريق محنة صلب المسيح . وهكذا يأتى بولس – وهو الذى يعبر عن مجمل دعوته بأنها « حديث

(١) انظر « الرسالة إلى أهل كورينثيا » (١٥ / ١٢ وما يلى) .

للصليب » – بالإضافات الأساسية على السنن الأصلية الخاصة بآخر مأدبة لعيسى ، فيجعل منها تحقيقاً مسبقًا لذلك السر الذى أفصح عنه الأستاذ من خلال تعذيبه والذى فرض فى القربان أن يصوره بدوره إلى ما لا نهاية . وبهذا يكون القربان : العمل الشعائرى المركزى فى العبادات المسيحية ، والمنبع الجوهرى الذى يفيض منه فضل السيد على الجماعة التى « تهتف باسمه » .

ولم يتطور القربان نحو هذه المعانى كلها إلا لأن عقيدتين من العقائد أخذتا بلب المسيحيين وتغلغلتا فى ضميرهم : الأولى تقول إن السيد « موجود حقيقة » فى وسط الاجتماع القربانى ، وعلى اتصال مباشر ومشاركة فعلية بعباده . والثانية هى ذلك المفهوم الذى نسميه بـ « التحول »[1] والذى يعنى : تحول الخبز والخمر – بفضل طقوس التقديس – إلى لحم ودم عيسى ، بحيث يصبح تناول الأصناف المقدسة « تجسيدًا » ماديًّا وروحيًّا معاً للسيد فى المسيحى ، بالصورة التى أشار إليها هو نفسه باعتبارها الصورة الصالحة لإتمام السر.

ولا شك أن هذه الأحكام العقائدية لم تجد إطارها التعبيرى النهائى إلا بعد لأى . وأن النصوص الأولى[2] التى نلمحها فيها لا تخلو من التردد والغموض ؛ ولو حدث عكس ذلك ، لكان أمرًا مستغرباً . إلا أن نظرية التحول ، فى نهاية

(١) انظر فى ذلك « الرسالة الأولى إلى أهل كورينثيا » (١١ / ٢٣ وما يلى) . ولا نقول إن بولس نفسه هو مخترع العبارة التى تنطوى فى آن واحد على كل الأحكام التالية : إن الخبز المقدس هو الجسد « الذى أسلم من أجلكم » ، وإن الكأس « هى العهد الجديد فى دمى » ، وإنه يجب « إقامة ذلك » أى تكرار نفس الحركات والكلمات على الأصناف من خبز وخمر « تذكرة بى » . وإنما نعتقد أن الإضافة الأساسية فى نظرية التحول ، التى تحملها هذه العبارة ، كانت من عمل المجتمع الهيلينى حيث نشأ الحوارى ، وإنه تلقاها باعتبارها « كلمة السيد » .

(٢) جمع العلامة راوشن هذه النصوص فى كتابه « التحول والتوبة » ، المطبوع بباريس عام ١٩١٠

القرن الثانى ، كانت قد وجدت الحدود الأساسية لاتجاهاتها العامة ، وإن لم تكتمل فيها بعد صور الإعجاز التى سوف تستخلص عناصرها من هذه الاتجاهات العامة .

أما التوبة ، ففهومها لم يتقدم ، بطبيعة الحال ، مثل هذا التقدم السريع فى تلك الفترة ، وإن برزت أيضاً واتضحت معانى ومعالم تطورها .

والأمر هنا لا يتعلق بالتوبة التى قد يقيمها الآثم فى خاصة نفسه عند الندم على خطاياه ، ولا بالتأدب الأخلاقى الذى يترتب لديه على ذلك ، فهذا واجب على كل المسيحيين ، بل هو الأساس الأول لأخلاقهم العملية منذ قيام عيسى بدعوته . ولكن خروجهم عن جادة الفضيلة ما لم يفتضح ويصبح أمره معلوماً للمجتمع فهو من خاصة الضمائر ولا يعنى إلا أصحابه . والأمر يختلف كل الاختلاف عندما يظهر المؤمن على الملأ من إخوانه خطايا تنم عن ضعف النفس وتثير الشك فى أمر نجاته كما تعد قدوة سيئة لهؤلاء الذين لم يستقر الإيمان فى نفوسهم كل الاستقرار . لذلك شعرت الجماعة فى زمن مبكر بأنها ملزمة بواجب مزدوج تجاه الآثم الذى يظهر إثمه : واجب الإرشاد بالنصيحة الأخوية ، ثم واجب اتخاذ الحيطة حتى لا يظلم هذا الآثم سوى نفسه . وترتب على ذلك : الالتزام بإنشاء تنظيم كنسى يضمن إصلاح الأمر فى حالة الآثم الظاهر ، وفصل الآثم المفضوح عن المجتمع ثم استعادته عندما يأتى بالدليل المرضى على صلاحه من جديد . وما لبث هذا التنظيم أن اتخذ صورة سلسلة من الطقوس ، سائراً فى ذلك وفق النزعة العامة التى نزعتها جميع أعمال الكنيسة . وكان من المحتم أن تتطور إجراءاته نحو الاشتمال على معانى وقيم الشعائر القدسية ، بسبب الأهمية التى أضيفت عليه شيئًا فشيئًا فى الحياة المسيحية بالنسبة إلى المذنب والمجتمع على

حد سواء ؛ فأصبح فرضاً محتمًا على التائب من الذنب يتيح له استعادة قدرته على أن يتلقى من جديد ذلك الفيض المنجى الذى هو دعامة مجتمع « القديسين » .

وفى نهاية القرن الثانى بلغ تنظيم طقوس التوبة من النمو والتحديد مبلغًا كبيرًا . إلا أنه يبدو أن مفاهيمها اللاهوتية القدسية لم تكن قد أخذت بعد فى البروز حقيقة . ولكنه من المؤكد لدينا أنها أصبحت منذ ذلك الحين أمرًا لازماً فى نظر المسيحيين ، وأنها كانت موجودة ضمنًا فى الطقوس التى اتخذتها السلطات الكنسية لـ « الحل » أو « العقد » على الأرض وفى السماء على حد سواء .

وإن النصوص التى ترجع إلى بداية القرن الثالث ، والتى درسناها فى غير تحيز ، لا تشير البتة إلى أثر للشعائر القدسية الأربعة الأخرى التى سوف تتحدد فى الكنيسة بمرور الزمن ، وهى : التثبيت (فى الدين) والتنصيب (فى الوظيفة الكنسية) ، والزواج ، والمسحة الأخيرة بالزيت المقدس (للموتى) . ولا نعنى أنه يستحيل علينا ، نحن ، أن نلمح بذور هذه الشعائر بين مختلف التقاليد التى اتخذت منذ ذلك العصر فى طقوس الكنيسة ؛ ولكن المسيحيين لم يكونوا ليدركوا بعد مفاهيمها .

ومنذ ذلك العصر والمسيحية دين أصيل : له عقائده ومراسمه وتنظيماته ، التى تحددت أسسها الجوهرية واتجاهاتها العامة المستقبلة ، وإن لم تكن قد خرجت بعد من طورها البدائى . وتلك العقائد والمراسم والتنظيمات لم تنشأ بفعل قوة ذاتية مفطورة فيها ، بل هى على العكس تكونت بفضل نوع من التأليف تعاونت عبادات الشرق – من يهودية وأديان ذات أسرار – مع الفكر اليونانى فى تزويده بجميع عناصره . وإنها أيضاً لعقائد ومراسم وتنظيمات سوف تتطور –

حسب ما يفرضه عليها المستقبل ، بنفس الأسلوب التأليفى . وسوف تستقى وتتغذى يومًا بعد يوم ودون انقطاع من كل ما يحويه العالم اليونانى – الرومانى من اتجاهات دينية حية باقية ، وإن تم ذلك فى كثير من التردد عند الاختيار ومن الجدل عند التطويع . وكانت هذه العملية عملية « لا شعورية » بالتأكيد ، ولكنها استمرت فى صبر ومثابرة ، حتى أتى يوم اتضح فيه للعيان تهافت سائر الجماعات الدينية التى امتص منها الإيمان المسيحى والشعائر المسيحية جوهر ما كانت تعتمد عليه من قيم ومفاهيم .

obeikandl.com